الصحابة

٨

عثمان بن عفان

ذو النورين

بقلم : درويش الزفتاوى

رسوم داخلية: مى نوار

دار المعارف

تصميم الغلاف
شريفة أبو سيف

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

اجتمعَ شَمْلُ العائلةِ كما هى عَادتنا كُل يوم جمعَةٍ بعدَ صلاةِ العشَاء. فقد كانتْ عَادتنا منذُ زمنٍ بعيدٍ أنْ نلْتقى فى هذَا الموعدِ أنا وابنِى أحمد وأخته ناهِـد؛ لأَقصّ عليهما قصةَ أحدِ رجالِ الإسْــلام؛ لأبثّ فيهمَا روحَ الإسْــلام، ومَا امتازَ به رجَاله مِنْ خُلُقٍ كَريم، وصفاتٍ طيبةٍ وسمَاتٍ نبيلةٍ وشجَاعةٍ فائقةٍ وإيمانٍ عميقٍ. وكانَ هدَفى منْ ذلكَ أنْ تكونَ نشـأتهمَا نشأةً إسْلاميةً، وأنْ تكـونَ أعمالهمَا فى حدُودِ ما يأمرُ به الإسـلامُ. ولا يكونُ ذلكَ مُـيَسّـرًا إلا إذَا عرفَا الكثيرَ منْ قصصِ المسْلمينَ الأوائل، فتكُون هذِه القصص نورًا يهديهمَا سواءَ السبيلِ فيتخَلّقا بخلُقِ الإسلام وينهجَا نهجَ المسْلم الحق.

جلسْـتُ فى حجْرة الصَالُون وعَلى يسارِى ابنى أحمد، وعَلى يمينى أخته ناهِد. أما أمهمَا فقد انصرفَت لتؤدىَ بعضَ أعمالِ البيْت.

وبدأ أحمدُ الحديثَ فقال:

- يا أبتِ كنتُ أؤَدى اليوم صلاَة الجمعةِ فى المسْجدِ القريبِ منْ بيتنَا، وسمعْتُ خطيبَ المسجدِ يصفُ سيدَنَا عثمانَ بنَ عفّان ثالثَ الخلفاءِ الراشدِينَ بذِى النُورَيْن، فأرجُو أنْ توضحَ لِى لمَاذَا وصفَه بهذَا الوصْف؟

فقلتُ له: هلْ تدرى يا أحمدُ أننى كنتُ قدْ قررتُ أنْ يكونَ حديثُ الليلةِ عنْ عثمانَ بنَ عفّان، ومنَ الصدفِ الطيبةِ أنّ خطيبَ المسْجد قدْ تناولَه اليومَ فى خُطْبته بالحديث، وهذَا اتفاقٌ فى الفكْرِ جَميل. بلا شَكّ، فسيدُنَا عثمانُ شخْصيةٌ إسْلاميةٌ لهَا قدرهَا ومكانتهَا، وتاريخُهَا.

وهنَا تدخّلت أختُه ناهد فى الحديث فقالت: مادامَ هذَا هو شأْنه يا أبى فإننى أرْجو منكَ قبلَ الإجابةِ عَنْ سُؤَالِ أخى أحمد أنْ تحدثَنَا عنْ سيدنَا عثمانَ منذُ ولادته، ولاَ رَيْبَ أنكَ فى خلالِ حديثكَ ستوضّحُ لأخى أحمد لماذَا وصفه خطيبُ المسجد بذى النّورين؟!

فقلتُ لأحمد: ما رأيكَ فيمَا عرضَتْه أختُك، وهلْ توافقُ على رأْيهَا؟

فأجَابنى: نعَم يا أبت، فأنا أوَافقهَا تمَامًا عَلى رأْيهَا.

وبدَأتُ حَديثى إليْهمَا:

- وُلِدَ سيدُنا عثمانُ فى السّنَةِ السّادسةِ لعام الفيل، وهُوَ العامُ الذى جَاء فيه أبرهَةُ الحَبَشى بجيْشٍ كبيرٍ ومعَه عددٌ منَ الفيلةِ لهدْمِ الكعبةِ الشّريفة بَيْتِ الله الحرَام، فسلّطَ اللّه عَلى جيْشه الطيرَ الأبَابيلَ وردّهُم الله عنِ البيتِ وحَفظه. وفى هذَا العَام، وُلِدَ رسُولُ الله ﷺ.

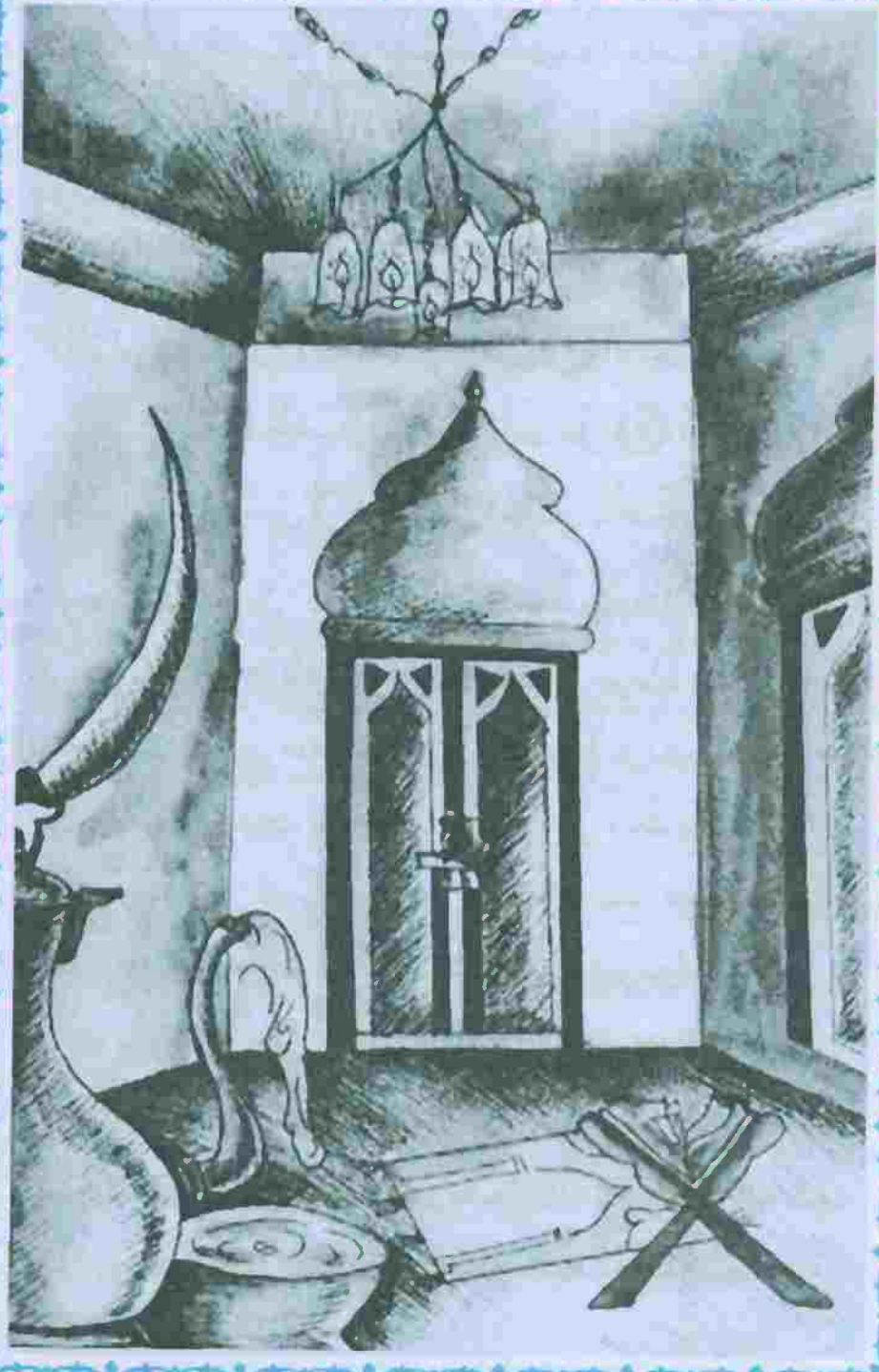

فقاطعَنِــى أحمــد: لقدْ ســمعتُ خطيبَ الجَامــع، يذكرُ فى حديث ســابقٍ له هذَا الحدثَ، وقَال إنّ اللــه تباركَ وتعَالى، أنزلَ فيه سورةَ الفِيلِ التى جَاء فيهَا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾(١)

وعدْتُ إلى حديثى فقلْتُ: فعلاً يا أحمد وسيدُنَا عثمانُ ينْتمى إلى بنِى أميّةَ، وهؤُلاء كانُوا قومًا أغنياءَ مُوسِرين، وهو ابنُ أبى العَاص بنُ أميّة بنُ عبدِ شمس، وأمه اسمهَا «أرْدى» بنت كريز ابن ربيعَة بن حبيب بن عبد شــمس، وهى تمتُّ بصلةِ القرابةِ إلى رسُولِ الله ﷺ، فأمُّها هى «البيضَاءُ» بنتُ عبدِ المطلب بنُ هاشمٍ، وأنتما تعرفانِ أنّ عبدَ المطّلب هو جدّ رسول اللّه ﷺ، والذِى تولاّه بالرعايةِ والعنايةِ بعْدَ وفاةِ أبِيه عبد اللّه.

وكانَ الناسُ يُطلِقُونَ على عثمانَ قبلَ إسْلامه أبا عمْرو، ولكنه بعْد إسْــلامه وزواجِه منَ ابنةِ رســولِ الله رُقَيّة، كانَ له منهَا ولدٌ اسْمه عبد الله فكانَ الناسُ ينادُونه أبا عبْدالله.

(١) سورة الفيل الآيات ١ - ٥ .

عاشَ سيدُنا عثمانُ فى صبَاه وفى شبابِه عيشَةَ أمثالِه المُوسرِين الأغنيــاء، وكانَ يعملُ بالتجَــارة، وكانَ أمينًــا فى تجَارته، فراجَت تجارتُه، وكثرَ ربحُه وأصبحَ منْ أغنياء قَومه.

فســألتْ ناهد: لعلّــه كانَ معَ هذَا الغنَى والثراءِ والوســامةِ رجُلاً مغرورًا، كما كانَ شأْنُ الكثِيرين منْ قومه منْ بنِى أميّة.

فقاطعْتهَــا: أبــدًا يا ابنتى لقــدْ كانَ رجلاً متواضعًا شــديدَ الحياءِ، عطُوفًا كريمًا، قَال عنه رســولُ الله ﷺ [أكثرُ أمتِى حياءً عثمان].

وكان عثمــانُ لحيائه يهابُ الحدِيثَ، ويَعَافُ الحوارَ وطُول الجدَل. وَرَوَى عنه أحدُ الرواة قال: «ما رأيتُ أحدًا منْ أصحاب رسولِ الله ﷺ كانَ أتمّ حديثًا ولا أحسنَ من عثمانَ إلاّ أنّه كان يهابُ الحدِيث».

وكان حياؤُه مانعًا له فى صبَاه وشبابه منَ الانزلاقِ فِى نزواتِ الشباب، بلْ كانَ رقيقَ القلبِ حـلوَ المعْشَر، عطوفًا لا يميلُ إلى العنْــفِ أَوْ الأذى أوِ القسْــوة. ولكمُا أنْ تتخيّــلاَ أنّ رجلاً غنيّا كانَ يتولّــى وضوءَ نفسِــه فى الليلِ فقال له أحــدُ أصحابه «لو أمرتَ بعــضَ الخدم فكَفُوك» أىْ أنْ يقومَ أحــدُ خدَمه بخدْمته أثنــاءَ الليــلِ إلا أنه قــال «لا» ورفضَ ذلكَ وقــال: «الليلُ لهُم يَسْترِيحُونَ فيه».

دَخَلَت علينا أُمّ أحمد وأخَذَتْ مكانهَا معَنا فى الحجْرة لتستمعَ إلى حَديثِنَا عَنْ عثمانَ رضى الله عنْه، وبدأ أحمدُ الحديثَ بسؤال:

- وكيفَ أسْلَمَ سيدُنا عثمانُ وأصبحَ أكْثر الناسِ قربًا لرسولِ الله ﷺ ؟

- اختلَفت الرواياتُ فى إسلامِ سيدنا عثمان رضى الله عنه.

فقاطَعَتْنى ناهد: لو تكرمْتَ يا أبتِ فإننَا نريدُ أنْ نعرفَ بعضَ هذه الرواياتِ عَلى اختلافها. فقلتُ: حسنًا يا ابنتى، فقدْ كنتُ عازمًا على روايتها كلّهَا. وتدخّلَ أحمد فى الحديثِ فقالَ:

ولكنّ شيخَ الجامعِ قَال فى خطْبته أنه أسْلمَ عنْ طريقِ أبى بكْرٍ الصّدّيق رضى الله عنه.

فقلْتُ: نعَم فهذه هى إحْدى الروايَات، وقدْ أجمعَ على صحّتها الكثيرُون. فقدْ كانَ أبُو بكرٍ عَلى صلةٍ وثيقةٍ ومودّةٍ برسُول الله ﷺ قبْلَ بعْثته، فلمّا بعثَهُ الله سبحَانه واختَاره لرسَالته، تحدّثَ إلى أبى بكْرٍ ودعَاه إلى الإيمانِ بالدّين الجَديد، فأجَابَ أبُو بكرٍ دَاعى الله وآمنَ بالله الواحدِ الأحَد، وشَاركَ رسولَ الله ﷺ فى الدعوةِ للدينِ الجديد. وكانَ أبُو بكرٍ

محبوبًا يحبّ الناسُ الجلوسَ إليه، والاستماعَ لحديثه، فأخذَ يدعُو أصحَابه ومنْ وثقَ به منْ قومه إلى الدّين الجَديد فتابعَه كثيرُون كانَ عثمانُ أحدُهم.

فسَألنى أحمد: مَنْ يا أبى منَ المسلمينَ الأوائلِ الذينَ استجَابُوا لأبى بكْرٍ ودعْوته خِلاَف سيدنَا عثْمَان؟

فأجبتُـه: منهُم عبـدُ الرحمنِ بنُ عـوف، وطلحةُ بنُ عبيد الله، وسعدُ بنُ أبى وقّاص، والزبيرُ بنُ العوّام، وأبُو عبيْدَة بنُ الجرّاح وكثيرُون منْ أهلِ مكّةَ المكرمَةَ. فالفضْلُ يرجعُ لأبى بكرٍ لأنه أقنعَ هؤلاءِ بالدعْوة الجديدَة وبالدّين الجَديد، فاستجَابُوا له، وصحِبَهُم إلى رسولِ الله ﷺ، فأسلَمُوا ودخَلُوا فى الدّين الجَديد».

أمّا الروايةُ الثانيةُ فتقولُ كما حدّثَ الرواةُ أنّ سـيدَنَا عثمانَ كان فى تجارةٍ إلى الشّـام، وعندَ عودَته استراحَ فى موقعٍ على طريقِ العوْدَة، ونامَ فسـمعَ هو وأصحَابُـه ورفاقُة كأنّ مناديًا يُنَاديهم «أيهَا النيامُ هُبّوا، فإنّ أحمد قدْ خرجَ بمكّةَ المكرمَةَ». فلمّا قدمَ عثمانُ إلى مكةَ المكرمةَ وسمعَ برسولِ الله ﷺ اتجهَ إليه واسـتمعَ منْه ثُمّ أسْلَم. وإنّنى أرَى أنه لا خِلاَفَ بينَ هذه الروايَة والروَايةِ السـابقة، فلعلّه حينَ وصلَ إلى مكةَ المكرمةَ

سمعَ بأمرِ الرسولِ الكَريمِ مِنْ أبِى بكرٍ الصدِّيق فذهبَ إلى رسولِ الله ﷺ وأسْلَم.

فقال أحمد: إننى أرَى يا أبت أنّ هذه الروايَات معَ اختلافهَا تشتركُ فى أمرٍ واحدٍ: هُوَ أنّ أبَا بكرٍ كَانَ العامِلُ الأَسَاسِىُّ فِى إسْلام عثمانَ رضِىَ الله عنهُمَا.

فقلتُ لـه: فعْلاً، رأيكَ هذَا رأىٌ سَليمٌ ومنطقى، وأنا أتفقُ معَك فيه، ومَا رأيُك أنت يا ناهد فيما قَاله أخُوك أحمد؟

فقالتْ: إننى أتفقُ معَه تمامًا يا أبى، ولكننِى وقدْ جاءَ ذكر السيدة رقية ابنَة رسول اللّه ﷺ ورغبتَه فِى الزواج منهَا، أودُّ أنْ تتفضّلَ فتحْكى لنَا قصّةَ زواجِه منهَا رغمَ أنهَا كانتْ حينَ تمناهَا زوجةُ لعُتْبَةَ ابنِ عمّ رسولِ الله ﷺ واستمعْتُ إليهَا جيدًا، ثم بدأتُ أروى لهَا قصةَ زواجِ عثْمَان، ولماذَا سُمّىَ بذِى النُّورَيْن؟!

هذَا هُوَ السؤالُ الذى بدأ به أحمد حديثَ الليْلة.

قلتُ لهم، وقدْ لاحظتُ أنّ أمهما قدْ أنصَتتْ إلينَا جيدًا ونحنُ نروِى قصةَ هذَا الزوَاج، قلتُ: عندمَا دعَا رسولُ الله ﷺ قومَه إلى الدين الجديد، عارضَه عمّه أبُو لهب بشدّة، ووقفَ فى وجْه دعوته، وكانَ عنيفًا فى مُعَارضته لابنِ أخيه، فأمرَ ابنَهُ عتبةَ بتطْليق زوْجَته رقيّة ابنةَ رسولِ الله ﷺ. فوجدَ

عثمـانُ أنّ الفرصـةَ واتَتْهُ ليتزوجَ مِنْ رقيّـةَ ويحققَ بذَلك أملاً كانَ يرجُوه فطلبهَا منْ رسـول الله ﷺ ، فوافقَ وزوّجَة إياهَا. فعاشتْ معَه سعيدةً هانئةً .

ولقدْ أنجبَ هذَا الزواجُ غلامًا هو عبدُ الله، ولكنّه ماتَ وهو فى السّادسَة منْ عُمره.

عـاشَ عثمـانُ مع زوجتِـه رقيّةَ فـى مكةَ المكرمـةَ يزاولُ تجارتَه. ثُمّ انقلبَ أهلُ مكةَ عَلى المسْـلمينَ فآذوهُم وعَذّبوهُم، واشتدّ الأذى عليْهم فأشارَ عليْهم رسولُ الله ﷺ بالهِجْرةِ إلى بلادِ الحبَشَـة، حيثُ إنّ ملكَهَا عَادلٌ لا يظلمُ عندَه أحَد. فرأى عثمانُ أنْ يهاجرَ بزوجَتِه، وكانَ أسبقَ المهاجرينَ. وقالَ عنهمَا رسـولُ الله ﷺ «إنهمَا أولُ منْ هَاجَرَا إلى اللّه بعْدَ نَبى الله لُوطٍ عليْه السلام».

وبقَـى عثمانُ مع زوجَته فى الحبشَـة، ثم عادَ بها إلى مكّةَ المكرمةَ، ولمْ يطلْ مقامهما بهَا، فقدْ هاجر عثمانُ وزوجتُه مع المسلمين من مكةَ المكرمةَ إلى المدينةِ المنورةِ وَأقَامَا هناكَ فى دارٍ تقـعُ فى مواجهَةِ دارِ رسـولِ الله ﷺ ، وكانَ بابُ عثمانَ فى مواجهةِ بَابِ ﷺ ، واتخذَه رسولُ الله ﷺ أمينًا عَلى أسرَاره.

فلمّا وقعَت غزوةُ بدْرٍ الكبرى كانتْ رقية مريضَة وقد اشتدّ عليها المرضُ، فأذنَ رسولُ الله ﷺ لعثمانَ فى التخلّف وعدم الخروج معَ الخارجينَ، وأبقاهُ بجانبهَا يمرضهَا ويخففُ عنهَا آلامَ المَرض. وفى اللّحظةِ التى وصلَ فيهَا البشيرُ إلى المدينةِ المنورةِ يحملُ بُشْرى انتصَار رسولِ الله ﷺ على أعدائه كانَ مرضُ رقيةَ قدْ بلغَ أقْصَى مراحِله، ولم تستطعْ أنْ تحتملَ شدّته، فماتتْ وأسلَمَت الروحَ فحزنَ عثمانُ عليهَا أشدّ الحُزْن.

وتدخّلَ أحمد وقَطَعَ الحديثَ وقال:

- ولكننى يا أَبى سمعتُ خطيبَ الجامعِ يقولُ إنّ سيدَنا عثمانَ كانَ من أهلِ بدرٍ، فكيفَ كانَ منْ أهلهَا وهُوَ لم يشتركْ فى هذه الغزوةِ كما جَاء فى حديثِك؟

فقلتُ له: سُؤالك وجيه يا أحمد، وأنا سَعيدٌ بحسْن إنصاتكَ وتتبعكَ، فسيدُنَا عثمانُ لم يشتركْ فعلاً فى القتالِ فى بدْر، إلا أنّ رسولَ الله ﷺ قدْ جعَلَ منْ رعايتِه لزوْجته فى مرضهَا واجبًا لا يقلّ عنْ واجبِ الجهادِ، ولهذَا جعَل له نصيبًا منَ الغنائمِ الّتى كانتْ للمسْلمينَ فى بدْر، ولهذَا اعتُبِرَ منْ أهْلِ بَدْر.

وتدخلَت أمُّ الأولادِ فى الحديث لأولِ مرّة، فقالتْ:

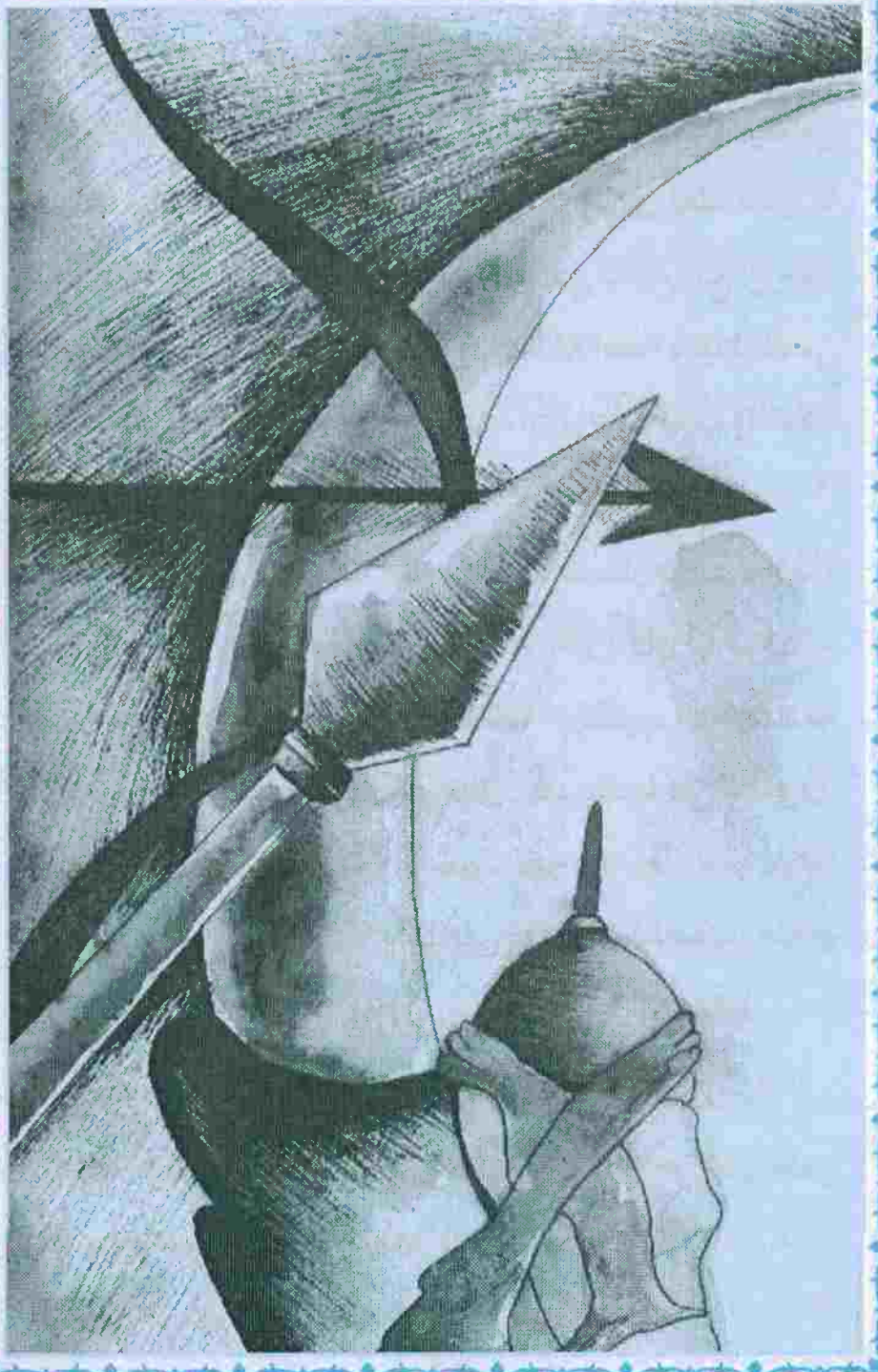

– نعَم إنّ منَ الواجبِ عَلى الزوج أنْ يرعَى زوجَته فى مرضهَا، وأنّ قيامَه بهذَا الواجبِ أمرٌ يرضَى عنه الله سبحَانه وتعالى ويقبلُه، وهذَا الذى فعَله رسولُ الله ﷺ والذى فعَله سيدُنَا عثمانُ دَرْسًا لكلِ الأزواج. فالزوجةُ التى تعيشُ مَعَ زوجهَا وتقومُ على خدْمتِه ورعايةِ أولاَده وتحفظُ له اسمَه وتبذلُ أقصَى جهدَهَا لراحةِ الجميعِ، مِن الواجبِ أنْ يرعاهَا الأبُ والأولادُ إذَا ألمّ بهَا مَرَض.

وسألتْ ناهد: وماذَا فعلَ سيدُنا عثمانُ بعْدَ موتهَا؟

فأجبتهَا: حَزِنَ عليهَا ولكنّ رسولَ الله ﷺ، كانَ قدْ عرفَ له حسنَ عِشْرتِه لأهْله، فزوجَه منْ أختهَا أمّ كلْثوم. وعاشَتْ معَه فترةً منْ حَيَاته إلاّ أنّ حياتهَا لمْ تطُل، فقدْ مَاتت هِىَ الأخْرى. وحزِنَ عثمانُ لموتهَا وواسَاه رسولُ الله ﷺ وقال: لَوْ أنّ لنَا ثَالثة لزوجْنَاك إيّاهَا. وهذَا يدلّ عَلى مدَى ارتباطِ سيدنا عثمانَ برسُول الله ﷺ، ومدَى حبّ رسولِ الله ﷺ لعُثمان.

وعَادَت ناهد تسْأل: ومنْ أجْلِ هذَا سُمّىَ بذِى النوريْن؟

فقلتُ: نعمْ فزواجُ عثمانُ منْ رقيةَ وأم كلْثوم، هُوَ الذى جعلَ المسلمينَ يلقبونَه بذِى النّوريْن.

وعَادَت أمّ الأولادِ لتسْأَلَ:

- وهلْ تزوجَ سيدُنَا عثمانُ غيرهمَا؟

فأجبتهَا: نعَم تزوجَ منْ نسَاءٍ أخْريات، كانتْ آخرُهن «نَائلَة» التى عَاشَت معَه وشهدَتْ مقْتلَه وكانَ له من زوجَاته بنُون وبنَاتٍ يزيدُون عَلى خمسةَ عَشْرَة.

وفى مسَاء اليوم التالى، وبعدَ أن انتهى أحمد وناهد منْ مراجعةِ دروسهمَا وأداء الواجباتِ المقررةِ عليهمَا اجتمعَ شملُ الأسرةِ فى حجْرةِ الجلُوس، لنسْتكملَ الحديثَ عنْ سيدنَا عثمانَ بنَ عفّان.

وكما هىَ عادةُ أحمد فقدْ بدأ الجلسةَ بسؤَالٍ قَال:

- نريدُ يا أبى أنْ تحدثَنَا عنْ حيَاة سيدنَا عثمَانَ معَ رسولِ الله ﷺ، فإننى أذكرُ أنّ خطيبَ الجمعَة قَال منْ بيْن ما قَاله أنّ سيدَنَا عثمانَ كانتْ لهُ أيادٍ بيضَاءَ عَلى الإسلامِ والمسْلمين، وأنه لمْ يبخلْ بثروته عليْهم بلْ جعلهَا فى خدْمتهم جميعًا حتّى أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اللهمّ ارضَ عنْ عثمانَ فأنا عنْه رَاضٍ».

فقلْتُ: إنكَ يا أحمد فتًى تجيدُ الحديثَ، وتعرفُ كيفَ تبدؤُه وأنا سعيدٌ لأنكَ مازلتَ تذكرُ ما جَاءَ فى خطبةِ الجمعةِ عنْ سيدنا عثمانَ، وهأنذَا أستجيبُ لكَ، وسيكُونُ حديثِى الآنَ عنْ حياةِ عثمانَ معَ رسولِ الله ﷺ.

وبدأتُ حَدِيثى: قلتُ لكمَا بالأمسِ إنّ سيدَنا عثمانَ لمْ يشهدْ غزوةَ بدْرٍ بسببِ مرضِ زوجَته رقيّة ابنةَ رسولِ اللّه ﷺ، ولكنّه شَهدَ بعْدَ ذلك كلّ غزواتِ رسولِ اللّه ﷺ، فقدْ خرجَ معَ رسولِ اللّه ﷺ فى أحُد وشهدَ الخندقَ وخَيْبر، وفَتْح مكّةَ المكرمَةَ وحُنَيْن وتَبُوك.

فقاطعَنى أحمد: معذرةً أبتَاه هلْ كانَ سيدُنا عثمانُ منْ أبطالِ حَرْبِ المسْلمينَ كسيدِنَا عَليّ وسيدِنَا حَمْزة وخَالد وعمْرو وسعْد بن أبِى وقّاص، إننَا فِى درَاستِنَا للتاريخِ الإسْلامى فِى المدرسَة، لاحظْنَا أنه لمْ يَرِد اسمه فى المعَارِكِ كَما وردَ اسمُ هؤلاء ؟!

فقلْت: نعَم هو لمْ يكنْ منْ رجالِ الحرْب، ولكنّهُ معَ ذلكَ كانَ لَه دورٌ كبيرٌ فِى بعضِ المواقفِ الإسْلامية، فعندمَا خرجَ رسولُ اللّه ﷺ معَ أصْحَابه قاصدِين مكةَ المكرمةَ لأداءِ العمْرة آمنينَ غيرَ مقَاتلين وعلمتْ قريشٌ بمَسيرهم أقسمَت ألاّ يدخلَ رسولُ اللّه ﷺ وأصحَابُه عليْهم مكةَ المكرمةَ عنْوَةً، وأخرجَت فرسَانها بقيادةِ خالدِ بنِ الوليدِ لمقاتلَتهم، ونزلَ رسولُ اللّه ﷺ بأصْحَابه فِى موقعٍ يُسَمّى الحدَيْبيَة. وأرادَ رسولُ اللّه ﷺ أنْ يبعثَ إليْهِم سَفِيرًا فاختَارَ عمرَ، لكنّ عمرَ اعتذرَ بمَا تعرفُه قريشٌ منْ عداوتِهِ لهَا، وشدّته

عليهـا ثم اختارَ رسـولُ الله ﷺ عثمان، وحـاولَ عثمانُ أنْ يقنعَ قريشًـا لتُخلّى بينَ المسـلمينَ والبيت الحرام، ولتسـمحَ لَهُـم بأداء الزيَارة،ولكنّ رجَالَهَا رفضُوا ذَلك وطالَ بقاءُ عثمان بمكـةَ المكرمةَ حتّى أشـاعتْ قريشٌ أنّ عثمانَ قـدْ قُتل، ذَلك لمكْر منها، ولحاجَة تريدُهَا، فغضبَ رسول اللّه ﷺ وَقرر أنْ يقاتلَهم ودعَا أصحَابه لبيعة الرضوَان وتعهدُوا فى هذه البيعة أنْ يقاتلُوا قريشًـا، وضرَبَ رسـولُ اللّه ﷺ بإحْدى يديْه على الأخـرى بيعةً لعثْمَانَ كأنـهُ حـاضرٌ معَهُم . وبينمَا يسـتعدُ المسـلمُونَ للقتـال بلغَهُم أنّ عثمـانَ لمْ يُقْتل ، وأقبلَ علَيهم عثمانُ وأبلغَ رسـولَ اللّه ﷺ ما دارَ بينَهُ وبيْنَ قريش، وبناءً علَى ما سـمعَه رسـولُ اللّه ﷺ منْ عثمـانَ، دارَت المفاوضَاتُ بينَه وبينَ قريـش وانتهَتْ إلى عَقْد صُلْـح الحدَيْبيَة، ورجعَ رسـولُ اللّه ﷺ وأصحابُه إلى المدينة المنورة عَلى أنْ يعودَ إلى مكـةَ المكرمةَ فى العـام التالي فيُقيموا بهَا ثلاثـةَ أيّام لزيَارَة البيْت الحرَام.

وهنَا سألَ أحمد: ولكنْ رغمَ موقف عثمانَ فإنّ خطيبَ المسْجد ذكرَ خلالَ حديثه عنه، أنه قدّمَ ثروتَهُ ومَالَهُ للمسْـلمينَ وأنه جَعَلهُ فى خدْمتهم، فَقَدْ كانَ سـخيًّا بمَاله فيمَا يصلُحُ المسلمينَ فكيفَ كَانَ ذَلك؟

فأجبتُـه: نعَـم كان عثمانُ سَـخيًا بمَاله، لـمْ يحْجزه عن المسْـلمين أبدًا، بلْ جَعَله طوعَ أمرهِـم وفى خدْمتهِم، والدليلُ عَلى ذَلك ما كانَ منْ أمْره فى غزوةِ تبُوك.

فسَـألتْ ناهد: وماذَا فعلَ بماله فى غـزوةِ تبوك، وضد منْ كانت هذه الغزوةُ وما سببهَا؟

فقلتُ:

- غزوةُ تبوكٍ هذه كانتْ فى شـهْرِ رجَب فى السنةِ التاسعةِ منَ الهجْرة، وكانتْ ضد الروم فقدْ سـمعَ رسولُ اللّه ﷺ، أنّ الرومَ قدْ جمعتْ جموعًا كثيرةً بالشّـام تهددُ شـمالَ الجزيرةِ العربيـة، فدعَـا المسْـلمين إلى الخـروج وبعثَ إلـى القبائلِ العربيـةِ يدعُوهم إلى المشـاركةِ فى هذه الغـزوة، وهىَ آخرُ غزواتِ رسولِ اللّه ﷺ، وكانَ عليه الصلاَةُ والسلامُ قدْ دعَا إلى التجْهيزِ والإعداد، فتبرع عثمانُ بنُ عفّان بألف دينار وضعهَا فى حجْرِ رسُولِ اللّه ﷺ ليسْتعينَ بهَا عَلى تَجْهيزِ الجَيْش، وقدّمَ ثلاثمائة بعيرٍ كاملةَ العدّةِ ليحملَ عَليهم رسولُ اللّه ﷺ أصحَابَه. وكانَ عثمانُ أكثرَ الناسِ تبرعًا حَتّى أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «ما ضرّ عثمان ما فعَل بعْد اليوم» وكررهَا مرّتيْن.

فقالتْ ناهد: للّه درّ عثمان والله لقدْ فعلَ ما لمْ يفعلْه غيرُه، تبرّع بثروته فى أشـدّ الأوقات عُسْرًا، وَأُطْلق عَلى هَذه الغَزْوة

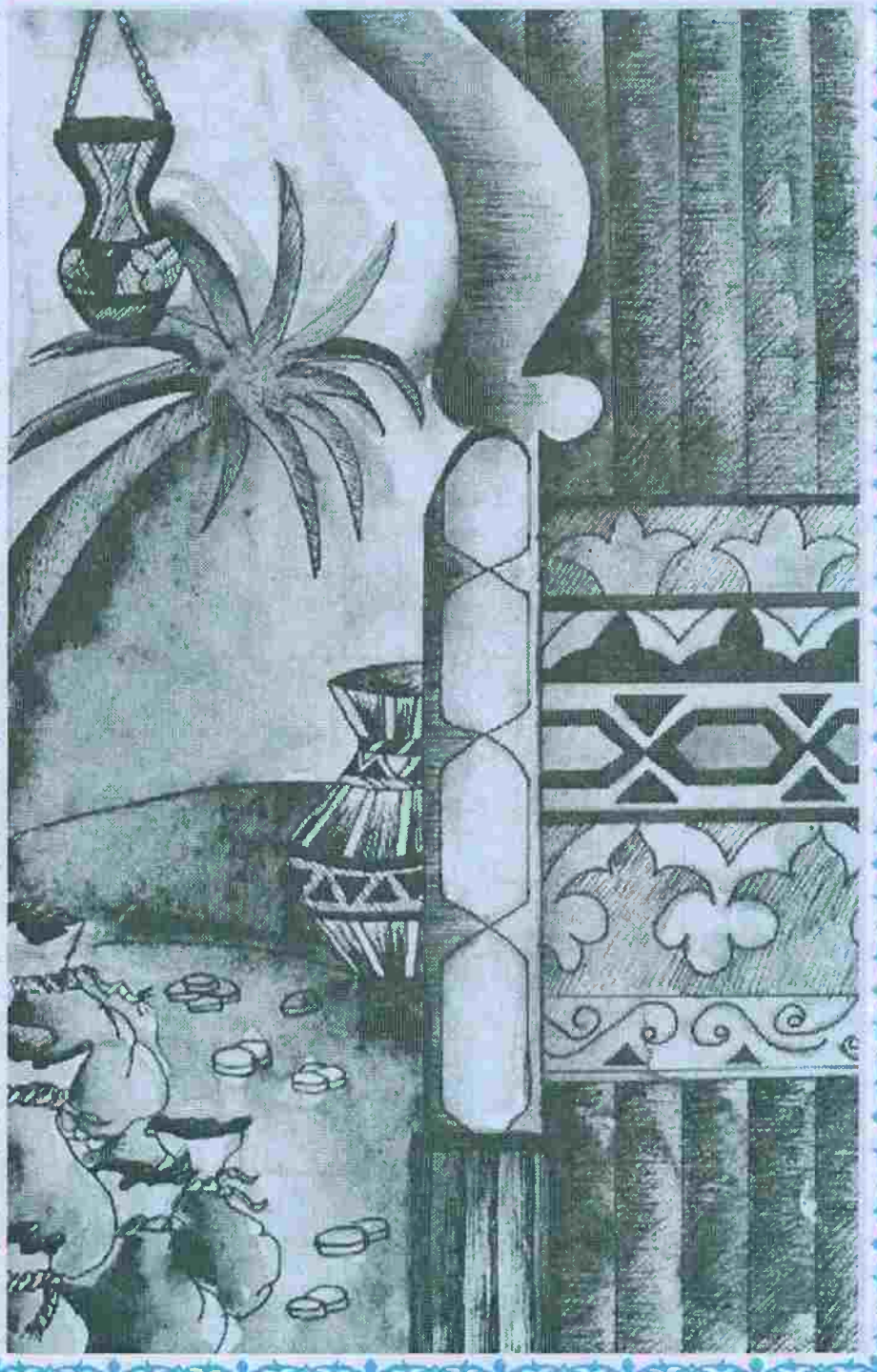

جيش العُسْرَة، وقدْ قالتْ لنا مدرسةُ التاريخ بالمدرسةِ إنّ كثيرًا منَ المسْـلمين أرادُوا الخروجَ معَ رسـولِ الله ﷺ، ولكنهُم لمْ يكُونوا يملكُونَ ما يحملُهم فعادُوا وهُم يبْكُون.

فقلتُ لها: نعَم يا ناهد، هذَا الذِى تقُولينه حَق.

وقاطعَنى أحمد: إذنْ فعثمانُ رغمَ أنه لمْ تكُن له فى ساحاتِ الحرُوبِ مواقفُ تذْكَر، إلاّ أنه جَاهدَ بمَاله فى سـبيلِ الله كما جَاهَد غيرُه بسِـلاَحه فى سبِيلِ الله، وهو بذَلك يقفُ عَلى قدمَ المسَاواةِ معَ أبطالِ الحرُوب فى الجهَادِ الشّرِيف.

ولكـنْ هَلْ اكتفَى سـيدُنا عثمانُ ببذْلِ مَالـه خلالَ الغزواتِ فقـط؟

فقلـتُ عَلى الفور: سـؤالٌ وجِيه يا أحمد إنّ سـيدَنَا عثمانَ لمْ يمنعْ أنْ يسـتخدمَ مَاله منْ أجلِ المسـلمينَ فى الغزواتِ وفى غيرهَـا، وإليكم ما حدَث فى المدينةِ المنـورةِ فقدْ كانَ بالمدينةِ المنورةِ بئرٌ يملكُه رجلٌ يَهُودِىّ، وكانَ يبيعُ ماءَهُ للمسْـلمين، بثمنٍ مُرتفع، فقالَ رسولُ الله ﷺ لأصحَابه «مَنْ يشترى بئرَ رُومَةَ» فيجعلهَا للمسْـلمين يضربُ بدَلْوه فى دِلاَئِهمْ ولَهُ بهَا شِـرْبٌ فِى الجنّة»، فلمّا سـمعَ عثمانُ قولَ رسُـولِ اللّه ﷺ، أتى اليهودىّ وعَرَضَ عليْه شـراءَ البئـرِ، إلاّ أنّ اليهودىّ أبى

أنْ يبيعَهَا كلَّهَا، فعرضَ أنْ يشـترىَ عثمـانُ منه نصفَهَا عَلى أنْ يكـونَ له يـومٌ ولعثمانَ يـوم، فوافقَ عثمـانُ ودفعَ للرجلِ نصفَ الثمَن، وقدْره اثنَا عشـرَ ألـفَ درهم، وطلبَ عثمانُ منَ المسـلمينَ أنْ يحملُوا مـنَ البئرِ فى يومهم مَـا يكْفِى حاجتهُم لمـدةِ يوميْن متتابعَيْن، وبذلكَ لمْ يقْبل المسـلمُونَ عَلى البئْرِ فى اليومِ المخصّصِ لليهُودِى فقلّ دخلُه فذهبَ إلى عثمانَ وقَال له: «أفسـدتَ علىّ بئرِى فاشْـترِ النصفَ الآخر. ولمْ يتردّدْ عثمانُ فاشـتراهُ منْ مالـهِ بثمانيـةِ آلافِ درهَم، وجعَله للمسْـلمين يشربُون منْه ويستخدمُون مَاءَهُ قدرَ حَاجتهم».

وسألَ أحمد: ومَاذَا كانَ منْ أمرِ عثمانَ عَلى عهْدِ رسولِ الله ﷺ وحتّى انتقلَ ﷺ إلى الرفيقِ الأعْلى؟

فقلتُ: عاشَ عثمانُ حياتَه قريبًا منْ رسـولِ الله ﷺ ، وله مكانتُـه فـى قلبِه ﷺ ، وعـاشَ منصرفًا إلى العبـادَةِ وتلاوةِ القرآنِ الكريمِ، وكانَ يُبَاشـرُ تجَارتـه ويُوقف دخْلُه منهَا فى خدمةِ المسْلمين، فاشتهرَ بأنه كريمٌ سَخِى.

وقاطعَتْنـى ناهد: وبعدَ وفاةِ رسـولِ الله ﷺ ، كيفَ عاشَ عثمانُ فى عهدِ أبِى بكْرٍ وعُمَر؟ وهلْ ظلّ عَلى مَا كانَ عليه فى عهْدِ رسولِ الله ﷺ ، كريمًا سخِيّا معْطَاءً؟

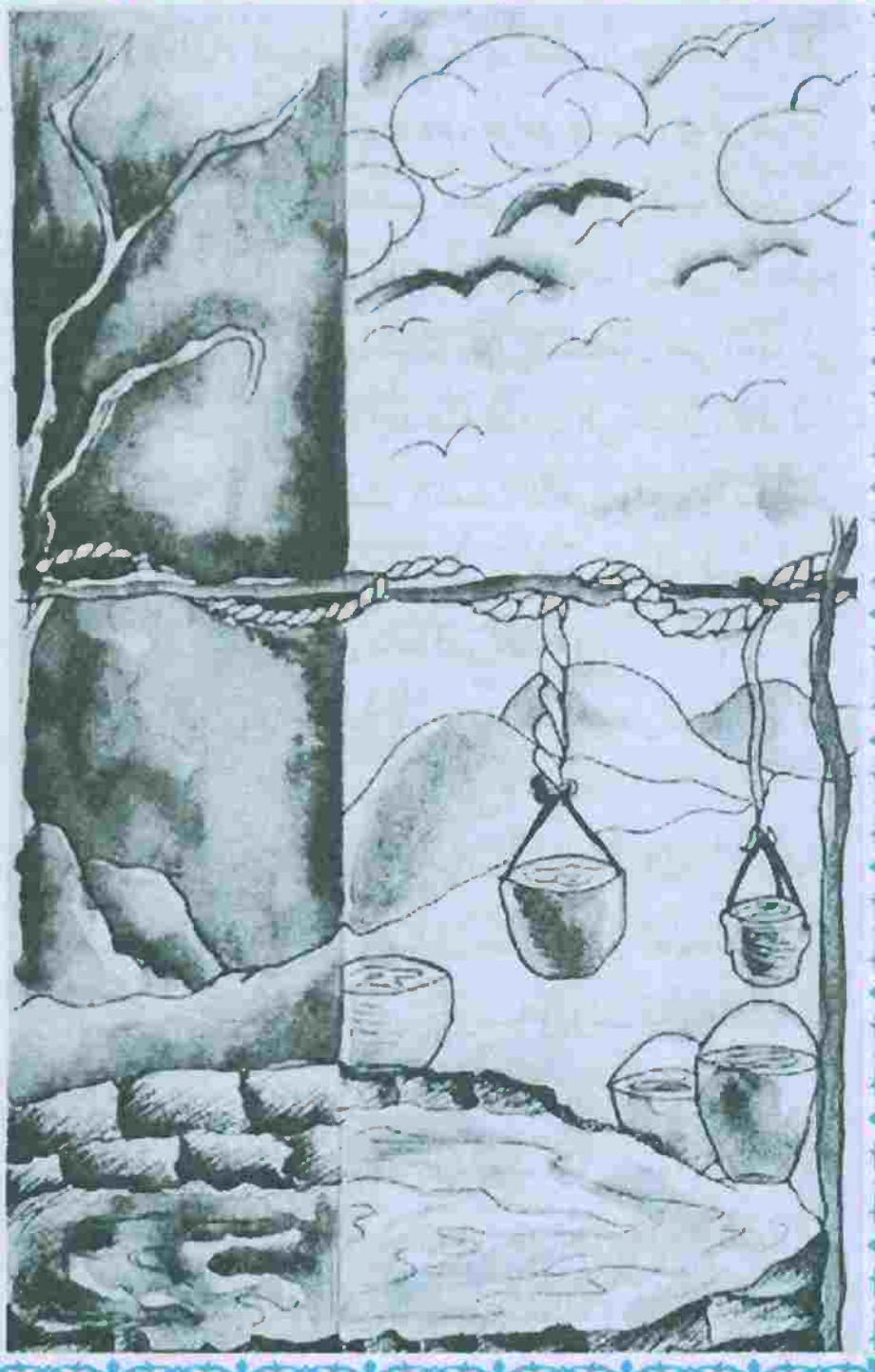

فأجبت: نعَم ظلّ يباشرُ عبادتَه ويباشرُ أيضًا تجارته، ولكنّهُ كانَ يدْلـى برأْيه فيمَا يُطلَـبُ منْه وكانَ لا يبخَلُ برأى يرَى فيه مصْلحةَ المسْـلمين. ومِنْ ذلك مثلاً أنّ أبا بكرٍ حينَ عَزَمَ عَلى غزوِ الشّـام، دعَا أهلَ الرأى منَ المهاجرينَ والأنصارِ ليشـاورَهُم فى الأمْـرِ، وكانَ عثمـانُ أحدهُم، فاسـتمعَ إلـى رأى عُمر، وكانَ يشـجعُ عَلى الغزْوِ، وإلـى رأْى عبدِ الرحمنِ بـنِ عوفٍ، وكانَ يدْعُو إلـى الحيْطةِ والحذَر. فلمّا طلبَ منْـه أبُو بكرٍ الرأْىَ قَال له: «أَرى أنـكَ ناصرُ أهْل هذَا الدّين شـفيقٌ عليْهم، فإنْ رأيْتَ رأيًا لَهُم فيه رشدٌ وصلاَحٌ وخيرٌ، فامضِ فإنكَ غيرُ ضَنينٍ عَليْهم بالخَيْر»، وهـذَا رأىٌ فيه تعقّلٌ وحكْمة. فإنه قدْ تركَ الأمرَ كلّه للخليفةِ يَرى فِيه رأيَه ولكنْ بشرطِ أنْ يكونَ فيه خيرُ المسلمينَ، وخيرُ الإسْلام. وقَدْ أُعجبَ الناسُ برَأيه وأقرّوه وأيدُوه.

وكانَ لعثمـانَ رأىٌ آخر فى موقفٍ آخر، فـإنّ أبا بكرٍ أرادَ أنْ يُوصى بالخلافـةِ منْ بعْده لعمرَ بن الخطاب، فاستشَـارَ الناسَ حتّى يجمعَ كلمةَ المسْـلمين عليه. وبدَا أنّ بعضَ المسـلمينَ كانُوا يخْشُون شدّةَ عمر وغِلْظَتِه. فلمّا سألَ أَبُو بكرٍ عثمانَ قالَ عثمانُ: «اللّهُـمّ عِلْمى به أنّ سـريرَتَه خـيرٌ مـنْ عَـلانيته وأنْ ليسَ فينَا مِثله».

وظلّ عثمانُ فى عهدِ عمرَ يباشـرُ تجَارته ويشيرُ عَلى عمرَ برأيه، حينَ يَطْلبُ رأيَه فى أمْرٍ منْ أمورِ المسْلمين، وكانَ رأيه يتفقُ معَ رأىِ عمر فِى أمورٍ كَثيرة، ولوْ أنه عارضَه فِى موقفٍ أو أكْثر، وكانَ يبْتغى فى ذَلكَ مصلحَةَ الإسْلامِ والمسْلمين، ويريدُ وجْهَ الله سبحَانه وتعَالى ورضَاه.

قَال ابنى أحمد: تبيّنَ لِى منْ حديثِكَ الشّيق الجميل عنْ سيدنَا عثمانَ رَضىَ اللّه عنْه، أنه كان هادئ الطبعِ شديدَ الحياءِ منَ اللّه، مُقبلاً على شعائرِ الدينِ فى هدُوءٍ يخْشَى الحديثَ يُبْدى رأْيَه فِى أمورِ المسْلمين بما فيه مصلحَةُ الإسلام والمسلمين أجمعين.

وتولّى أبُو بكرٍ شئونَ المسْلمين بعدَ وفاةِ رسُول الله ﷺ، فتصدّى للمسْلمين الذينَ ارتَدّوا عنِ الإسْلام وحَاربَهُم، كما تصدّى للمسْلمينَ الذينَ امتنعُوا عنْ دفْعِ الزكاةِ وأرغمَهُم عَلى دفعِهَا.

وفى عهْدِ عمرَ قامتِ الدولةُ الإسلاميةُ فى الجزيرةِ العربيّة ومصْر والشّام والعراق، ووضعَ عُمَرُ القوانينَ والتشريعَاتِ وَنُظُم الحياةِ فى كافّة أنحاءِ الدولةِ، كمَا أنه كانَ شديدًا فِى موضعِ الشدّةِ رحيمًا بالمسْلمين حريصًا عليْهم وعَلى مصَالحهم، فكيفَ وعثمانُ بهَذه السّمَاتِ العُمريّة حِينَ أصبحَ خليفةً للمسْلمين؟!

وأضافتْ أختُه ناهد :

إننـــى أوافقُ أخى أحمد عَلى رَأْيه فى كلّ مَا قَالَه، وأرجُو أنْ توضحَ لنا يَا أَبى كيفَ تولّى سيدُنا عثمانُ أمورَ المسلمينَ وكيفَ اتفقتْ كلمةُ المسْلمين على اختيَاره ؟

وسعدتُ جدًا بمَا قاله أحمد وناهد، وسَرَدتّ عليهمَا الإجابةَ عَنْ سؤالهمَا فقلْتُ:

قضَى سيدُنا عمرُ عشْرَ سـنواتٍ فى الحكم، ونهَضَ بالعبْء العظيـم الـذى ألقَـاهُ القدرُ عَلـى عَاتقه، فـكانَ القائدُ الأعلى للجَيـش، والفقيهُ الأكبرُ فى شـئون الديـن، والقاضى النَزيه الـذى أخذَ للضعيـف حقّه مـنَ القوى، والأب البـارّ الرحيمُ بالمسْـلمينَ، والمؤمنُ الصادقُ الإيمانَ باللّه ورسُوله، والسياسىّ العبْقرىّ والادارىّ الحَكيم.

خرجَ سـيدُنَا عمرُ منْ بيته قبلَ طُلُوع شـمس يوم الأربعَاء فى أواخر شهْر ذى الحجّة سنةَ ثلاث وعشرينَ للهجْرة، ليؤُمّ الناسَ لصـلاة الفجْر، ولما بدأ يَنْـوى الصلاةَ، ظهرَ رجـلٌ أمامَه فجأةً وطعَنه بخنْجر عدّةَ طعنات، وقبضَ المسْـلمونَ عَلى القاتل وكانَ اسمه «أبا لُؤْلؤَةَ المجُوسىّ» وأرادَ عبدُ الله بنُ عمر الفتكَ بالقَاتل، لكنّ عمرَ رضى الله عنه قال: اتركُوه، فإن عشـتُ فأنَا كفيلٌ به، وأبُو لؤلؤةُ فارسـىٌ وقعَ فى الأسْـر فى موقعَـة «نهَاوندْ»، وقاومَ القاتلُ المسْلمين، ولكنه طَعَنَ نفسَه بخنْجرٍ فمات.

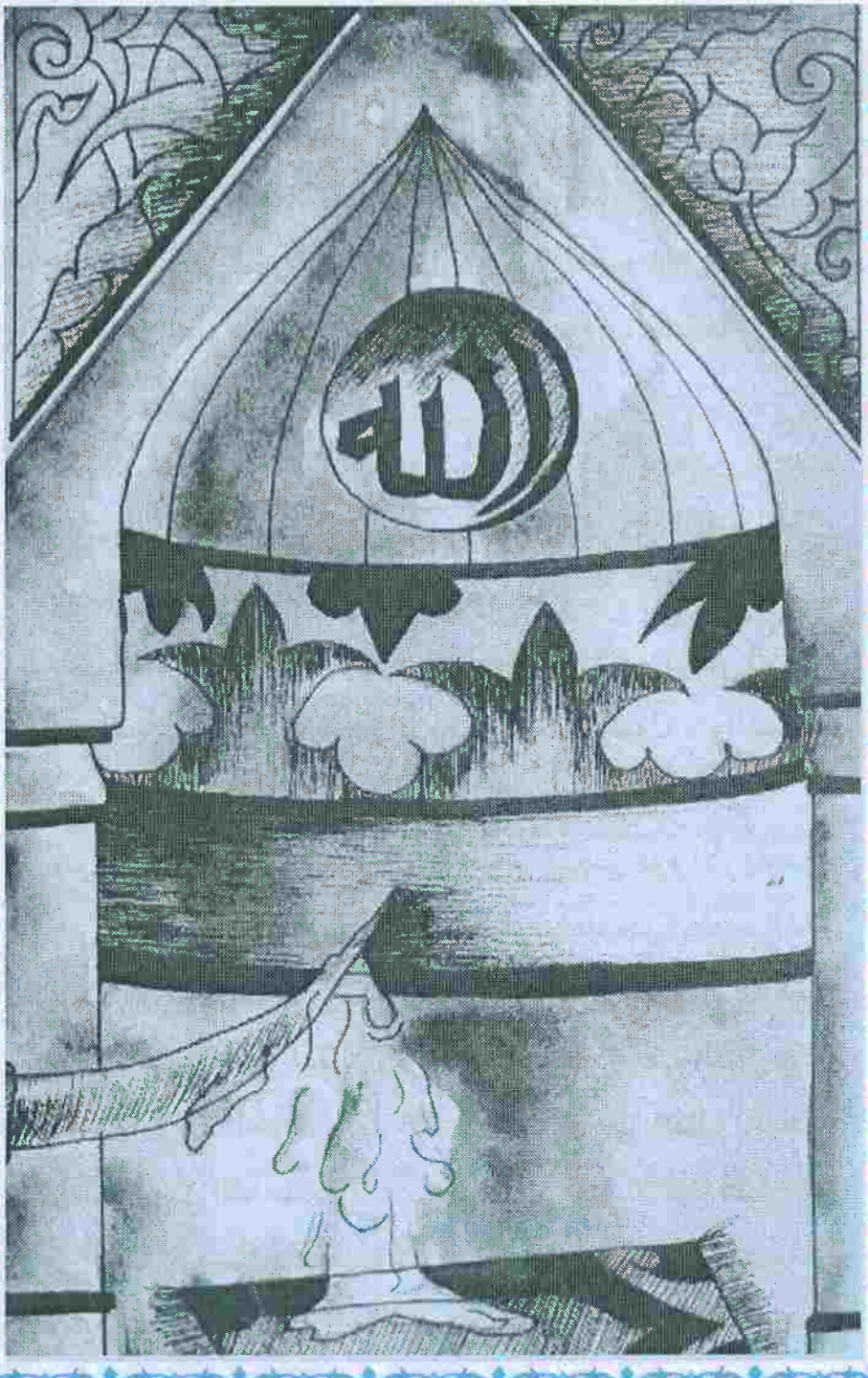
الله

وشغَل مستقبلُ المسْلمينَ تفكيرهُم، وأخذُوا يتساءلُون منْ يخلُفُ الفاروقَ عُمَر؟ وهلْ سيختارُ عمرُ منْ يتولّى أمرهُم منْ بعْده؟ كما فعلَ أبُو بكرٍ حينَ وَافَاهُ الأجلُ فاستخلفَ عليهم سيدَنا عمرَ، أمْ أنه سيتركُ الأمرَ لهُم كما حدثَ بعدَ وفاة رسول الله ﷺ. وسألَ ابنُ عمر أباهُ أنْ يستخلفَ فقالَ له عُمر: «إنْ أستخلفْ فقدْ استخلفَ منْ هُوَ خيرٌ منّى، وإنْ أَتْرُكَ فقد تركَ منْ هو خيرٌ منى»، وطلبَ سعيد بن زيد منَ الفاروق عُمر وهُو عَلى فراشِ الموتِ متأثرًا بجرَاحه أن يشيرَ برجُلٍ منَ المسْلمين فقالَ له:

«لو كانَ أبو عبيدة حيًا لاستخْلفته وقلتُ لرَبّى إنْ سَألنى سمعْتُ نبيّكَ يقُولُ أنه أمينُ هَذه الأمّة، ولو كانَ سالم مولَى أبى حُذَيفة حيًا لاستخْلفته، وقلتُ لربّى إنْ سَألنى سمعْتُ نبيّكَ يقولُ: «إنّ سَالمًا شَديدُ الحبّ للّه تعَالى».

وعرضَ أحدُ المسْلمين عليه أنْ يختارَ ابنَه عبدَ الله فرفضَ بشدّة وأرادَ ابنُ عمر أنْ يستخلفَ عبدَ الرحمن بنَ عوف، ولكنّ الفاروقَ عمر رفضَ.

وسألَ أحمد: وماذَا فعَل عمرُ يا أبى؟ وكيفَ انتهى إلى رَأْى فِى هذَا الموقفِ العَصيب؟

فأجبتُه: انتهى عمرُ إلى أنْ يكونَ الأمرُ شُورى بينَ المسْلمين فاختارَ ستةً منهُم، وطلبَ أنْ يجتمعُوا وأنْ يختارُوا منْ بينهم

الخليفةَ الجديدَ، وحددَ لهُـم مدةَ ثلاثة أيّام ينتهُون فيها منَ الاختيارِ وأوصَى عمرُ منْ يقعُ عليْه الاخْتيار بتقْوى الله وبحفظ حقّ المهاجِرين الأوائل وبالإحسَـان إلـى الأنصار ومراعاة أهل الأمْصَارِ والأعرَابِ، وطلبَ عُمر أنْ تتمّ المشاورةُ والاختيارُ بعدَ وفاته مباشَرة.

وقاطعَتنى ناهد قائلةً: ومنْ هُم هؤلاءِ السـتة ولماذَا اختارهُم عُمر بالذّات ؟

لقد اختَارَهم الفاروقُ لسـبْقهم إلى الإسْلام وصُحْبتهم رسول اللّـه ﷺ، وهم: علىّ بنُ أبى طالب وهو ابنُ عم رسُـولِ اللّه ﷺ وأقربهُم رُحْمًا به عليه الصلاة والسّلام وأكثرهُم به صِلَةً، ثم الزبيْـر بن العوّام ابن صفية ابنة عبد المطالب عمةُ رسُـول اللّه ﷺ، وهو ابن أخ السـيدة خديجـة أمّ المؤْمنينَ رضى اللّه تعالى عنها، وقد أسـلَم وهو فى السادسَـة عَشْـرةَ منْ عمره، وهاجَر إلى الحبشَة ثُمّ إلى المدينَة المنورة، وَشَهدَ الغزواتِ معَ رسـول اللّه ﷺ وقال عنه رسولُ الله ﷺ «لكل نبى حوارىٌ وحواريـى الزّبير بن العـوّام ثم عثمان بنُ عفـان» زوجُ ابْنتَىْ رسول اللّه ﷺ رقية وأم كلثوم. وكانَ رسولُ اللّه ﷺ يحبّه أعظَمَ الحبّ لأنه كان منَ السـابقين إلى الإسلام، وأثارَ إسلامُه غضـبَ قومه عليْه، فأخذَه عمّـه الحكم ابن أبى العاص فأوثقَه وقـال له «لتَدَعْ دينَ آبائكَ إلى ديـنٍ مُحْدَثٍ والله لا أدعكَ أبدًا

حتّى تدعَ ما أنتَ عليه» فرفضَ وبقَى عَلى دينه وقَال لعمّه والله لا أدعَه أبدًا ولا أفارقُه. فلمّا رَأى عمّه صَلابَته وتمسّكه أرسلَه.

لقد عرفتمَا منْ حديثنا مواقفَه الكثيرةَ بجانبِ المسْلمين.

أما الرابعُ فكانَ سعدُ بنُ أبى وقّاص وهو خَالُ رسولِ اللّه ﷺ ، أسلَم وهو ابنُ سبعِ عشْرةَ سنة، وصحِبَ رسول اللّه ﷺ ، وهو الذِى قادَ جيوشَ المسلمينَ فى بلادِ الفرسِ.

وكانَ الخامسُ عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ وهو ابنُ عم سعد بن أبى وقاص وصِهْرُ عثمان بن عفان، وقال عنهُ رسولُ الله ﷺ :

«أمينٌ فى الأرضِ أمينٌ فى السّمَاء» أمّا السادسُ والأخيرُ فكانَ طلحةُ بنُ عبيد الله، وهُو أولُ مَنْ أسلمَ معَ أبِى بكْرٍ، ووقفَ فى غزوةِ أحُد يدافعُ عنْ رسولِ اللّه ﷺ حينَ أُصيبَ ﷺ ، وكانَ طلحةُ متغيبًا عنِ المدينةِ المنورةِ حينَ طُعنَ عُمر، فطلبَ عمرُ منْ جماعةِ الشّورى أنْ ينتظِرُوا طلحةَ ثلاثةَ أيام، فإذَا لمْ يحضرْ خلالها اختَارُوا خليفةَ المسْلمين.

وهنَا سألتْ ناهد: وماذَا فعَلوا يا أبى بعدَ وفاةِ سيدنَا عُمر؟

قلتُ: كَانَ المرشحانِ الأساسيّان على بن أبى طالب وعثمان ابن عفان، ورأى عبدُ الرحمن بنُ عوف أنْ يقفَ عَلى رَأْىِ

النـاسِ بصفة عَامّـةٍ، فكانَ الـرأىُ فِى صالحِ سـيدنا عثمان، واجتمعَ الناسُ بالمسْـجد فسـأل عبـدُ الرحمنِ سـيدَنَا عليًا: ابسـطْ يدكَ نبايعكَ علَى أَنْ تعملَ بكتابِ اللّه وسـنةَ رسُـوله وَسِـيرة أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - منْ بعْده؟ فأجَابه أرجُو أنْ أفعلَ وأعملَ بمبلغِ عِلْمى وَطَاقتى. وَوَجّه عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ نفسَ السـؤالِ إلى سـيدِنا عثمانَ فقال: «اللّهُمّ نعَم» فرشّـحَ عبدُ الرحمن بنُ عوف عثمانَ بن عفانَ خليفةً للمسْلمين وبايعَه النّاس.

وسألَ أحمد: وماذَا عنْ موقفِ طلحَة هل حضرَ المشاورَات؟

فأجبتُـه: لا ولكنه قـدمَ المدينةَ المنورة بعْـد مبايعَة عثمانَ فبايعَـه وأصبحَ عثمـانُ بذلك خليفةً للمسْـلمين مَسْـئُولاً عنْ مستقبلِهم وحياتِهم ودوْلتهم.

سـألنى أحمد: أرجُو يا أبـتِ أنْ تحدثنَا عنْ عهدِ سـيدنَا عثمانَ وما هى أهمُ الإنجازاتِ التى تمّتْ فى عهْدِه؟

فقلتُ: لقد تمتْ فى عهدِ سـيدِنا عثمانَ إنجازاتٌ كبيرةٌ كانَ لها أثرهَا فى حياةِ المسْـلمين، لقد استفتحَ عثمانُ بأنْ زادَ عطاءَ الناسِ عَمّا كانَ عليه فى عهْد عمر زيادةً أرضَت الناسَ جميعًا، وسـمحَ لكبارِ المسْـلمين بالخروجِ منَ المدينةِ المنورةِ إلى حيثُ

أرادُوا، وكانَ سيدنَا عُمر قدْ منعهُم منَ الخروجِ إلا بإذنٍ وإلى أجلٍ محدّد.

فسألتْ ناهد: ولماذا فعَل سيدُنا عمر ذلك؟ وما هى حكمتُه وقدْ عَرفناه حَريصًا عَلى صَالحِ المسْلمين؟

فأجبْتهَا: كانَ هذَا الخطرُ عَلى المهاجرينَ وحدَهُم، فقد كانَ يخْشى أَنْ تغريَهُم الدنيَا وأنْ تكثرَ فى أيديهم الأموالُ فيتغيّرُونَ. فَلَمَّا تولّى عثمانُ أطلقَ لهم حريةَ الحركَة والانتقَال فتنقّلُوا فى البلادِ وأخذُوا منْ أنعم الحياةِ بالنصيبِ الوافرِ، وحببَهُم ذلك فِى خِلَافَةِ عثمانَ وخاصّةً أنه لمْ يلزمهُم بالتقشّف والزهدِ كما فعَل عُمر.

وقد رَوَى أحدُ المسلمينَ واسمه عمر بن أمية أنه تناولَ مرةً العشاءَ مع سيدِنَا عثْمان، فأكلَ طبيخًا اسمه «خزيرة»، وهو طعام يطبخُ بلحْم ولبن وسمْن، فسأَله عثمانُ رَأيه فى الطعَام فقال: «هذا أطيبُ مَا أكلْت».

فقالَ عثْمان: «إنّ عمرَ رضى اللهُ عنه أتعبَ منْ جاء بعده».

وقال رجلٌ من العرَبِ أيضا هو عبيد الله بن عامر «كنتُ أفطرُ مع عثمانَ فى شهرِ رمضانَ فكانَ يأتينَا بطعَام، هو ألينُ منْ طعامِ عُمر» فقالَ له عثمانُ «يرحمُ الله عُمَرَ، ومَنْ يطيقُ ما كانَ عمرُ يطيق».

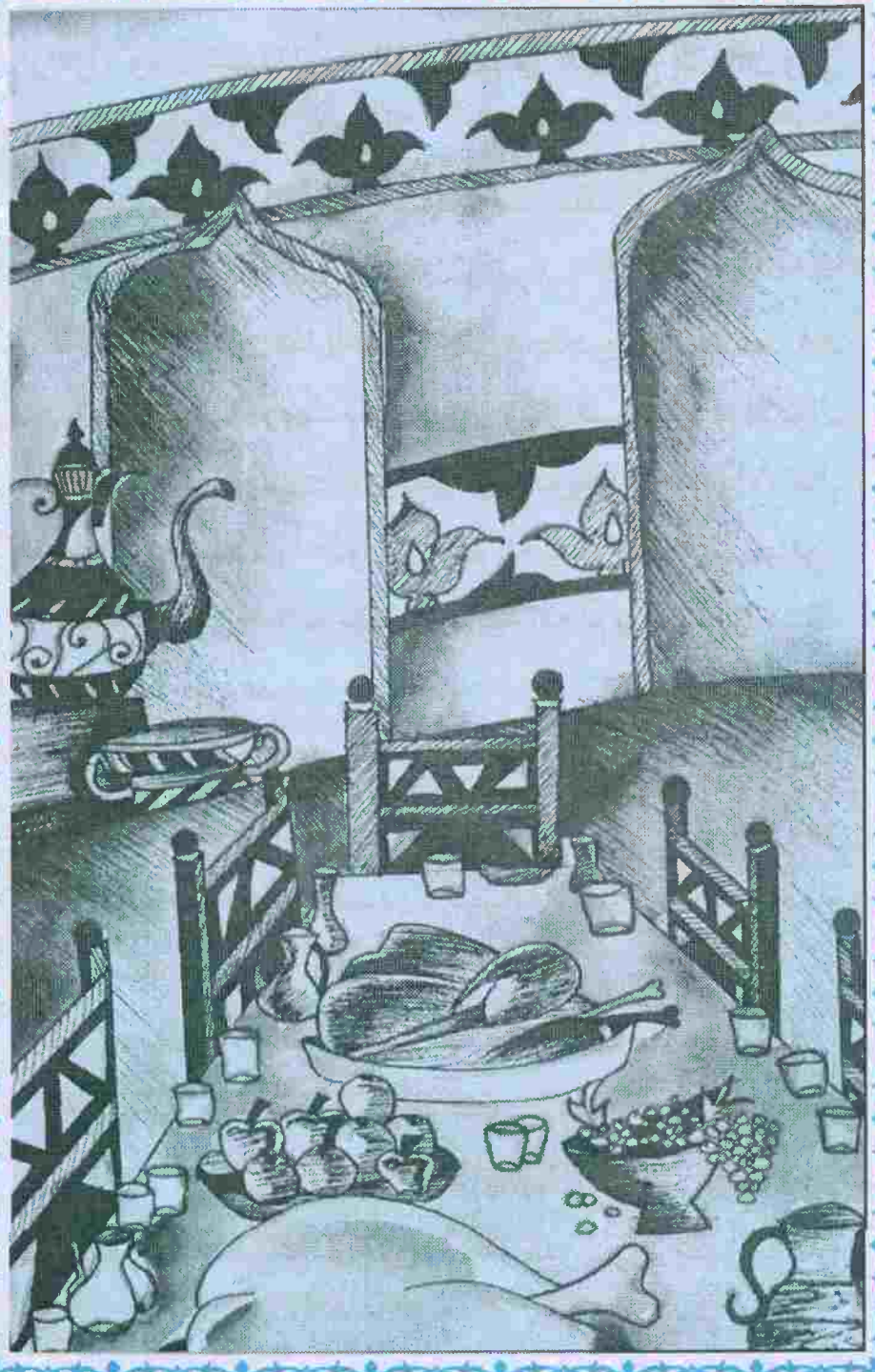

وقاطعَنى أحمد: وماذَا أيضًا يَا أبى؟

فقلتُ: لقد جددَ عثمانُ مسجدَ رسولِ اللّه ﷺ بإعَادةِ بنائِه منْ جديدٍ، فزادَ فِى رقعَته زيادةً عظيمةً، وأدخَلَ فى بنَائِه تطورًا كبيرًا، فبعدَ أنْ كانَ المسجدُ مبنيًا باللّبن، بناهُ عثمانُ بالحجارةِ المنقُوشةِ وجعَل له سقفًا وأعمدةً من الحديدِ والرصاصِ، وكانتْ وجهةُ نظَرة فى ذلك أنّ المسجدَ هُوَ مركزُ الحكمِ تصدُر منْه الأوامرُ إلى الولاةِ وفيه تقامُ الصّلاة.

وهنَا سألتْ ناهد: وهلْ فعلَ ذلك أيضًا ببيْتِ الله الحرامِ فِى مكةَ المكرمَة؟

فقلْتُ: إنه لمْ يفعلْ بموقعِ الكعبةِ الشريفةِ مثلَ ما فعَله بمسْجدِ رسولِ الله ﷺ، وقد اكتفَى بشراءِ بعْضِ الدورِ حولَ الكعبةِ الشريفَة، وضمهَا إليهَا، ثم أحاطهَا بجدارٍ قصيرٍ ولعلّ ذلك راجعٌ إلى أنّه كانَ يدركُ أنّ الكعبةَ الشريفةَ هى مكانٌ خالصٌ للعبادةِ وللصّلاة، أمّا مسجدُ الرسولِ بالمدينةِ المنورةِ فكانَ دارًا للحُكْمِ وللصّلاةِ والعبَادَة.

وقاطعَنى أحمد: وماذَا فعلَ سيدُنا عثمانُ بالمصحفِ الشّريفِ فقدْ سمعتُ خطيبَ الجَامعِ يقُول: إنه جمعَ المصاحفَ كُلّهَا فى مصحفٍ واحدٍ ونشَره فى كافةِ البقاعِ والولايَاتِ الإسْلاَميّة ؟

فأجبْتُــه: فعلاً وهذَا منْ أعظمِ مآثرِ سـيدنَا عثمان، فقدْ كانَ شـديدَ الإيمان. وجمعَ الناسَ عَلى قراءةٍ واحدةٍ للقرآن الكريم، وأحــرقَ كلَّ المصاحــفِ الأخرى ما عـدَا المصْحفِ الـذِى أعدّه وســمّاه مصحفَ عثمــان، فقدْ لاحظَ بعضُ المسْـلمين أنّ الناسَ تختلــفُ فى قــراءةِ القرآنِ الكريــم وأنهُم يقرءونَــهُ بقراءاتٍ مختلفــةٍ، وكلٌّ يقُول لصَاحبــه إنّ قِرَاءتى خيرٌ مــنْ قرَاءتك. واختلفَ المسْلمونَ فى القِرَاءة، وبلغَ الخلافُ حَدّا كادَ أنْ يكونَ فتنةً، وأسرعَ أحدُ المسلمينَ وهو حذيفةُ إلى عثمانَ وقال له:

أدْرِكْ هــذِه الأمــةَ قبلَ أنْ تهْلكَ إنى أخْشَــى أنْ يختلفُوا فى كتابِهــم كما اختلفَ اليهــودُ والنصَارى. فجمــعَ عثمانُ الناسَ وشاورهُم فى الأمْر، ورَأى أنْ يجتمعَ المسْلمونَ عَلى قراءةٍ وَاحدةٍ، ثُمّ بعثَ إلى الســيدةِ حَفْصَةَ وكانتْ تحتفظُ لديهَا بمصْحَفِ أبى بكْر، يســألهَا أنْ ترسلَ إليه المصحفَ لنسخه، وأنتمَا تعرفانِ أنّ أبَــا بكرٍ أمرَ بعــضَ القراءِ بجمْعِ القــرآن الكريم فى عهْده، واحتفــظَ به عندَه فِى حيَاته، ثم احتفظَ به عمرُ ثم وُضِعَ عندَ أمّ المؤمنــينَ حفْصَــةَ بنت عُمَر، وأَمَرَ عثمانُ زيــدَ بنَ ثابتٍ، أنْ يكتبَ المصحفَ تحتَ إشرافه وبمعَاونةِ قلّةٍ منَ المسْلمينَ سمّاهُم عثمانُ وَحدّدَهــم. فلمّا أتموا كتابتَه عَلى قِراءةٍ واحدةٍ، أرسَــل النّسَخَ إلى الأمصَارِ، ثم جمعَ المصاحفَ الأخْرى وحرقهَا.

وهنَا سألتْ ناهد وقدْ بدتْ عليهَا الدهْشَة:

- وهلْ قَبلَ المسْلمونَ هذَا العملَ بحرْقِ المصَاحفِ الأُولَى؟

فقلت: طبْعًـا لا، فقد اعترضَ كثيرُونَ وأخـذُوا على عثمانَ أنه صنعَ ما لمْ يصنعْه أبو بكرٍ وعُمَر، ولكنْ ما فعَله عثمانُ هو فعلٌ طيبٌ، فقدْ جمعَ الناسَ على قراءةٍ واحدةٍ وكانَ حكيمًا فى ذلكَ، ولقد سألَ بعضُ المسلمينَ سيدَنَا عليا رضى الله عنه رأيَه فـى إحراقِ المصاحـف فقال: «لوْ لمْ يصنعْـه لصنعْتُه» ، وقال للمعْترضين: «لوْ وُلّيتُ مثلَ ما وَلِىَ لفعلْتُ مثْلَ ما فعَل».

وأثـارَ أحمـد موضوعًا هامًا فسَـأَل: نحنُ نعـرفُ أنّ رقعةَ البلادِ الإسلامية اتّسعَت فى عهدِ سيدنَا عمر، وأنّ الإمبراطوريةَ الإسـلاميةَ امتدتْ منْ أقصَى بلاد فارس شرقًا إلى حدودِ بَرْقة وطَرَابلس غربًا، ومنْ بحرِ قَزْوين فى الشـمال إلى بلاد النوبة فـى الجنوبِ، فهـلْ كانَتْ هنـاك فتوحات أُخْـرى فى عهْدِ عثمان ؟

فقلـتُ: مع بدَاية عهدِ سـيدنا عثمان، ثـارتْ بلاد أرمينيا وأذربيجَان، وسَاعدَهم الفرسُ والرومُ، فأرسلَ عثمانُ الجيوشَ فقضَـتْ عَلَيْهم جميعًا، وحاولَ الـرومُ بعدَ خروجِهم منْ مصْرَ أنْ يعُودوا إليها منْ جديدٍ، فأعدّ الإمبراطورُ «فنسـانز الثانى»

أسْطولاً منْ ثلاثمائة سفينة تولّى قيادتَه «مانويل»، وبعَث به إلى مصرَ فنزل الأسطولُ بالإسكندرية بعدَ عام منْ بيعةِ عثمانَ، ثم سَار جيشُهم فى أرجاءِ مصرَ السفْلى ينهبُ البلادَ، وخاصّة القمح والتمْـر والأموال، وقد وَاجَهَهُم عمـرُو بنُ العاصِ على رأسِ خمسـة عشـر ألفا منَ المؤمنين وهزمهُم وردّهم وتابعَهم فتضعضَـع عزمُ الروم، ووهنَـتْ قوتُهُم، وانهزمُـوا واتجَهُوا إلى الإسـكندرية، وتعقّبهم المسْلمونَ حتّى قضوا عليْهم وَفَرّوا بالسفُن، وهربُوا فى البحرِ. وفى عهْده أيضًا تَمّ خُضوع الشمال الإفريقى كلّه بسُـهولةٍ، وجبالة وانتشـرَ الإسلامُ فيهَا بقيادةِ القائدِ العربى عبدِ اللّه بنِ سـعد. ولقدْ تركَ المسْـلمون إفريقيا لأهلهَا بعدَ أنْ صالحُوهم عَلى الجِزْية.

وقالـتْ ناهد: إننى ألاحظُ يا أبتِ أنّ الدولةَ الإسـلاميةَ بعدَ هذه الفتوحِ قد أصبحَت تطلّ عَلى شـواطئ طويلَة، وأنا أعرفُ مـنْ كتابِ التاريخِ الذى قرأتُـه أخيرًا أنّ عمرَ بنَ الخطابِ كانَ يرفضُ التعاملَ معَ البحرِ، وأنّ المسْلمين كانُوا يخشُون البحارَ. فما هو الموقفُ الآن لو تعرضَ المسْـلمون لهجُومٍ بحْرِىٍّ وخاصّة أنّ الرومَ كانُوا رجال بحْرٍ مَهَرَة ؟!

الله أكبر

فأعجَبنى سـؤالُهَا الذى أكد أنهـا تتابعُ الحديثَ والأحْداث بتركيزٍ وفهْم وقلتُ لها:

إنك تثيرين موضوعًا هَامّا، فإنّ سـيدَنَا عُمر كانَ يرفضُ فعلاً ركوبَ البحْر، وكانَ يخْشَاه على المسْلمين. وعندمَا تولّى عثمانُ الخلافةَ رفضَ أنْ يخالفَ سيرَةَ عمر، ورفضَ أنْ يسمحَ لمعاويةَ فـى غَزْوِ جَزيرة قُبرص منَ البحْر، ولكـنْ أمامَ إصرارِ معَاوية وافـقَ بشـرْط أنْ يتركَ ذلكَ للناس اختيارًا فمنْ شَـاء شـاركَ ومـنْ أبى لا يُجْبر وقالَ له: خيِّرهُـم فمنِ اختارَ الغـزوَ طائعًا فاحْمله وأعنه.

وهكَـذا جعَـل عثمانُ ركُوبَ البحرِ والغـزوِ فيه تطوعًا لمنْ يَشَـاء. وفتحَ المسـلمونَ قُبْرص، وَبُنى الأسـطولُ الإسْلامى فى الشـام ومصْرَ فى زمنٍ وجيز، وأصبحَت الدولةُ الإسلاميةُ دولةً بحْرية مرهُوبة الجَانب، وأصبح الأسـطولُ المصرىّ قوةً وأدَاةً لفتحِ البلاد.

ولمـعَ اسـمُ عبدُ الله بنُ قيـس كأعظم قادة البحْـر، فقد غَزَا خَمسـينَ غزوةً بحْريّةً ومكَر به أعداؤُه فقتلُوه دونَ قِتَال. ولعلّ أعظمَ معاركِ المسْـلمين البحْرية هى معركـةُ ذاتُ «الصّوَارى» التى انتصرَ فيها عبدُ الله بنُ سعد على الروم بقيادةِ «قسطنْطين بن هرقْل».

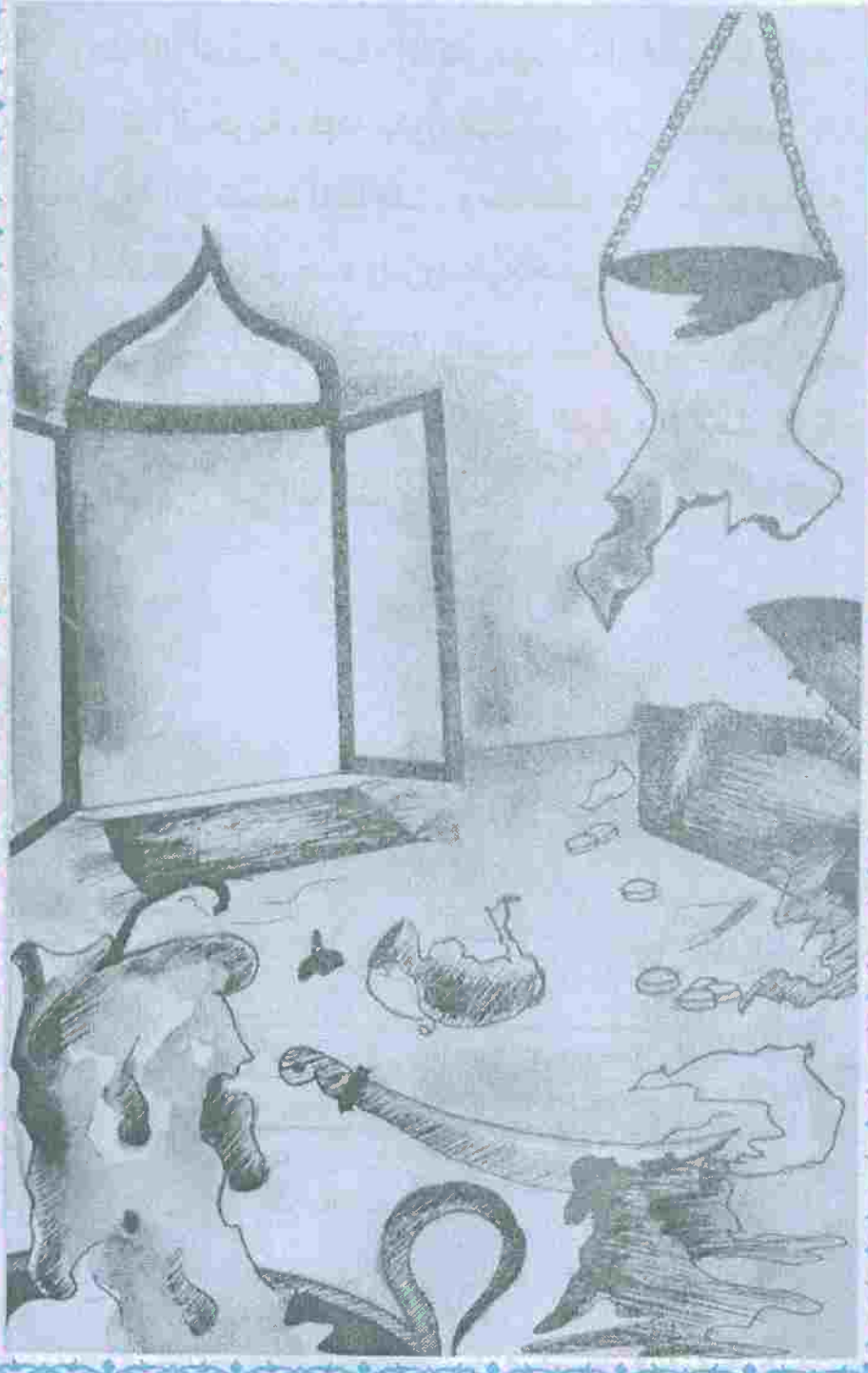

وهنَا قالَ أحمد فى حِدّة: إذا كانَ عهدُ عثمان قاصرًا على إنشَاءِ هذه القوةِ البحْريةِ، فإنه يكونُ عهدُ يُمْنٍ وخيرٍ للمسْلمين. هذَا بالإضافةِ إلى نَسْخه المصَاحف، ومحافظَته على القرآنِ الكريم. فَلِمَ إذنْ هاجَ الناسُ ضدّه وثارُوا عليْه حتّى قتَلُوه؟

ذَلكَ لظنّهم بأَنّ هناكَ أخطاءً ارتكبهَا عثمان، ولكنه كَانَ حسنَ الظنّ فيهَا. وأدّى ذلكَ إلى أَنْ قَتَله أحدُ الثّوّار وهو يُصَلّى. رحمَ اللّه عثمانَ ورضِىَ اللّه عَنْه وأرْضَاه .

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٤٣١٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6488-1

٧/٢٠٠٣/٢٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

الصحابة

يسعد دار المعارف أن تقدم للشباب والناشئة ، هذه المجموعة الشائقة عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الذين قال عنهم : « أصحابى كالنجوم .. بأيهم اقتديتم .. اهتديتم » .

مجموعة تحث الشباب والناشئة على القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة والقدوة الحسنة .

صدر منها :

١ - أبو عبيدة بن الجراح .
٢ - أبو حذيفة بن عتبة .
٣ - الزبير بن العـــوام .
٤ - زيـد بـن حـــارثة .
٥ - عبد الله بن رواحـة .
٦ - عبد الله بن مسعود .
٧ - أبو ذر الغفـــارى .
٨ - عثمـان بن عفـان .

دار المعارف

٢٣٥٠٧٠/٠١